دلالة الجرس الصوتي للفظة المفردة،
دراسة تطبيقية على حديث القرآن
عن قصة مريم في سورة مريم

إعداد

د/ عطاالله بن جضعان بن سمير العنزي

أستاذ البلاغة والنقد المشارك

كلية العلوم والآداب برفحاء - جامعة الحدود الشمالية

دلالة الجرس الصوتي للفظة المفردة، دراسة تطبيقية على حديث القرآن عن قصة مريم في سورة مريم.

عطاالله بن جضعان بن سمير العنزي
قسم البلاغة والنقد ، كلية العلوم والآداب برفحاء ، جامعة الحدود الشمالية، عرعر، المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: Atallah.Alenazi@nbu.edu.sa

الملخص :
هذا البحث يتناول موضوعاً مهماً وهو: دلالة الجرس الصوتي للفظة المفردة، دراسة تطبيقية على حديث القرآن الكريم عن قصة مريم في سورة مريم.

فمما يميز السياق القرآني انتقاء اللفظة المناسبة الملائمة للغرض المنشود، والمعنى المقصود، وعرضها بأسلوب معجز، ونظم دقيق، غني بجرس صوتي جاذب للأسماع، فالجرس الصوتي في القصص القرآني له أثر عظيم، في تجلية المعاني، وتوضيح الأفكار، ودلالتها على المراد منها، وتأثيرها في النفوس، وفي قصة مريم الواردة في سورة مريم كان للجرس الصوتي حضور بارز، ودور فعال، فهذه القصة تميزت بتعدد مشاهدها، واختلاف أحوالها، وتقلب أوضاعها، وتغير الحالات النفسية فيها، وكان للجرس الصوتي دور واضح في الكشف عن هذه الأحوال، وبيان الأغراض، وسبر أغوار الحالات النفسية، ومحاولة قراءتها، وقد حاولت في هذا البحث تسليط الضوء على دلالة الجرس الصوتي للفظة المفردة في قصة مريم في سورة مريم، ومساهمته في الكشف عن إعجاز القرآن الكريم، وبيان أغراضه وأسراره ومخارج الحروف في اللغة العربية بمثابة الموازين والمقادير، فمن خلالها يستطيع الناقد الحكم على اللفظة، فيميز الجيد من السيء، والقوي من الضعيف.

الكلمات المفتاحية: الدلالة ، الجرس، الصوت، اللفظة ، مريم ، القصة، سورة.

The significance of the vocal timbre of a single word in the story of Maryam from Surat Maryam

Atallah bin Jadhaan bin Samir Al-Anazi
Department of Rhetoric and Criticism, College of Science and Arts in Rafha, Northern Border University, Arar, Kingdom of Saudi Arabia.
Email: Atallah.Alenazi@nbu.edu.sa

Abstract :
This research deals with an important topic, which is: the significance of the vocal timbre of the single word, an applied study on the hadith of the Holy Qur'an about the story of Mary in Surat Maryam.

What distinguishes the Qur'anic context is the selection of the appropriate word appropriate to the desired purpose and the intended meaning, and its presentation in a miraculous manner, with precise arrangement, rich in an audio timbre that is attractive to the ears. The vocal timbre in the Qur'anic stories has a great impact, in clarifying meanings, clarifying ideas, indicating what is meant by them, and their impact on Souls, and in the story of Maryam mentioned in Surat Maryam, the sound timbre had a prominent presence and an effective role. This story was distinguished by its multiple scenes, its different conditions, the fluctuation of its conditions, and the change in its psychological states. The sound timbre had a clear role in revealing these conditions.

Explaining the purposes, exploring the depths of psychological states, and trying to read them. In this research, I have tried to shed light on the significance of the vocal timbre of the single word in the story of Maryam in Surat Maryam, and its contribution to revealing the miracle of the Holy Qur'an, and explaining its purpose.

Keywords: Connotation, Timbre, Sound, Word, Mary, Story.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فمدارسة القرآن الكريم وتفسيره وبيان معانيه، والغوص في أسراره، من الأمور التي تشرح الصدر، وتزيل الهم، فكل قراءة تكشف عن إعجاز بليغ، وكل تدبر في معانيه يكشف عن سر عظيم.

ومخارج الحروف وأصواتها في اللغة العربية بمثابة الموازين، فمن خلالها نستطيع الحكم على اللفظة، ومدى موافقتها للسياق، والكشف عن اللفظة القوية من الضعيفة، فالصوت اللغوي يتكون من: مخارج الحروف، وصفات الحروف، فالمخارج والصفات تشكلان الصوت اللغوي، وإهمال أحدهما إهمال للآخر.

والجرس من مميزات القرآن الكريم، فكل سورة منه وآية، وكل مقطع منه وفقرة، وكل مشهد منه وقصة، يمتاز بأسلوب إيقاعي غني، وجرس عجيب، فالإيقاع والجرس في الألفاظ يتناسب مع المعاني الذهنية، والدلالات الحسية الموجودة فيها، وهذا يعني أن اللفظة لم تأتِ عبثًا أو صدفة، إنما أبدعها قائلها الأعظم، فكانت غاية في الروعة والإتقان، من حيث ترتيب الحروف، وأصواتها ومخارجها.

ومن هذا المنطلق جاءت فكرة هذا البحث، الذي يبحث في موضوع مهم، وهو **(دلالة الجرس الصوتي للفظة المفردة، دراسة تطبيقية في حديث القرآن عن قصة مريم في سورة مريم)** ولا شك أن للجرس دلالة مهمة، وفائدة عظيمة، يكشفها السياق، وتوضحها المعاني، وهذا ما يميز السياق القرآني، الذي يتميز بانتقاء اللفظة المناسبة للمعنى المناسب، ويعرضها بأسلوب معجز، غني بجرس يجذب الأسماع، ويلفت الأنظار،

وهذا واضح جلي في القصص القرآني، التي تعددت أغراضها، واختلفت مناسباتها، وتنوعت موضوعاتها.

وقد عني القرآن الكريم باختيار اللفظة المناسبة في قصصه، فاختار اللفظة ذات الصوت المناسب، للمشهد المناسب، بحيث تكون في موقع لا يصلح غيرها مكانها، دالة على المعنى المراد بدقة عجيبة، وإعجاز بديع.

وقد اخترت قصة مريم التي وردت في سورة مريم؛ لمشاهدها المتعددة، وأحداثها المختلفة، وأحوالها المتقلبة، والتي كانت فيها الألفاظ المفردة دالة على أسرار مهمة، وأغراض متعددة.

وأهمية هذا الموضوع تكمن في كونه موضوعاً مهماً، يبرز دور الجرس الصوتي في الألفاظ المفردة، ويكشف عن الحالات الداخلية للأشخاص في القصص القرآني، عبر الأصوات والمقاطع والحروف التي تتشكل منها الكلمات والجمل، وكل ذلك يبين الإعجاز البياني للنظم القرآني، وهناك دراسات عديدة لسورة مريم، وهي إما دراسات تفسيرية، وإما دراسات بلاغية عامة، وهناك دراسات اعتمت بالدراسة الصوتية للسورة كاملة، دون تركيز على آيات الواردة في قصة مريم، ومن هذه الدراسات:

١- دراسة أسلوبية في سورة مريم، معين رفيق أحمد صالح، وهي رسالة ماجستير في جامعة النجاح الوطنية بفلسطين.

٢- المستوى البلاغي في سورة مريم، د.فيصل حسين غوادرة، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية (مجلد ١٧، العدد ١، يناير ٢٠٠٩).

٣- الجرس الصوتي، دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن، د.ياسر علي عبد الخالدي- م.م. كاظم صافي حسين الطائي، بحث منشور في مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية/ جامعة بابل كانون أول (١٢)/ ٢٠١٤م.

٤- الدلالة الصوتية في سورة مريم، د.رفاه مهدي الفتلاوي، بحث منشور في مجلة دواة (المجلد السادس، العدد٢٢، ربيع أول ١٤٤١هـ).

٥- الإعجاز الصوتي وجمالية الإيقاع في القرآن الكريم، سورة مريم أنموذجاً، د.سهام صياد، بحث منشور في مجلة الآداب (المجلد ١٨، العدد ١، ديسمبر ٢٠١٨)

وكل هذه الدراسات لم تفرد قصة مريم بدراسة خاصة، فهي إما دراسة لسور وآيات غير سورة مريم، أو دراسات لكامل سورة مريم، أو لآيات متنوعة منها، دون التركيز على دلالة الجرس الصوتي في قصة مريم، ودوره في الكشف عن الأغراض التي من أجلها ذكرت قصة مريم، أوهي عبارة عن دراسات لأساليب أخرى غير الجرس الصوتي للفظة المفردة.

وقد بدأت هذا البحث بمقدمة، ثم قسمته إلى مبحثين:

الأول: نبذة موجزة عن الجرس الصوتي، وصفات الحروف العربية.

والثاني: دراسة تطبيقية لدلالة الجرس الصوتي للفظة المفردة في قصة مريم.

ثم الخاتمة، ثم أهم المصادر والمراجع.

ومن أهم التوصيات في هذا البحث:

١- للقصة القرآنية أهمية عظيمة، لما فيها من العظات والعبر، ويجدر بالباحثين تسليط الضوء عليها، والكشف عن أسرارها، وبيان شيء من إعجاز القرآن فيها.

٢- دراسة القصص الأخرى في القرآن الكريم، ومحاولة بيان دلالة الجرس الصوتي فيها، وأثره في بيان معانيها.

وختاماً أسأل الله التوفيق والسداد، وأن يعيننا على قراءة كتابه، وتدبره، والعمل بما فيه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحث

المبحث الأول: نبذة موجزة عن الجرس الصوتي وصفات الحروف

أولاً: الجرس:

الجرس في اللغة: تنطق هذه اللفظة بفتح الجيم وكسرها، تقول (الجَرْسُ والجِرْسُ)، وورد في لسان العرب: جرست الماشية الشجر والعشب، تجرِسه وتجرسه جرساً :لحسته، وكذلك النحل: إذا أكلت الشجر للتعسيل، وقيل الجرس هو: الصوتُ الخفيُّ، ويقال: سمعت جَرْسَ الطير، إذا سمعت صوت مناقيرها على شيء تأكله، وجَرَسْتُ وتَجَرَّسْتُ، أَي تَكَلَّمَتْ بِشَيْءٍ، وَتَنَغَّمَتْ بِهِ.(١)

فمن خلال هذه المعاني والاستخدامات المتعددة للفظة (جرس) نجد أنها تدل على الصوت الخفيف أو القوي، وقد تعني مع الصوت الحركة، كما ذهب إلى ذلك ابن سيده.

فالجرس في الكلمات هو النغم والصوت، والوقع الذي تحدثه اللفظة المفردة في أصوات حروفها وحركاتها على سمع المتلقي، ومدى توافق هذا الجرس مع الدلالة المقصودة للفظة، وموافقتها للسياق والغرض الذي جاءت فيه، فمن خلال الجرس نستطيع أن نعرف مدى موافقة اللفظة للسياق الذي وردت فيه، فهو قيمة جوهرية في بناء الألفاظ واختيارها وملاءمتها للسياق، وهو أداة تأثير محسوسة على السامع والمتلقي.

وهذا ما يميز السياق القرآني، الذي يتميز بانتقاء اللفظة المناسبة الملائمة للغرض والمعنى المقصود، وعرضها بأسلوب معجز، غني بالجرس الجاذب للأسماع، وقد ظهر أثر هذا في نفوس العرب عند سماعهم للآيات التي تتلى عليهم لأول مرة، فقد استرعى القرآن الكريم أسماعهم، وجذب انتباههم، فوجدوا له حلاوة في أسماعهم، وجرساً مختلفاً عن السائد من كلامهم.

---

(١) – ينظر: الصحاح – لسان العرب، مادة (جرس).

ووجد العلماء القدماء من خلال معالجتهم للفصاحة والبلاغة أن في الألفاظ التي يعالجونها قيماً تأثيرية وجمالية، ترتبط بجرس الكلمة، فمرة تكون حسنة، وأخرى قبيحة، والمرجع في ذلك حاسة السمع.(١)

واللغة العربية – كأي لغة أخرى– تتشكل من مجموعة من الأصوات اللغوية، تتألف فيما بينها، مكونة عناصر اللغة ومقوماتها، ورأى علماء العربية أن أصوات اللغة العربية تنقسم قسمين: الأصوات الصوامت، وهي الحروف، والأصوات الصوائت، وهي الحركات.(٢)

ومن أهم من تكلم عن مخارج الحروف العربية، وصفات أصواتها، ابن جني (ت٣٩٢هـ) في كتابه: (سر صناعة الإعراب)، فقد تكلم عن صفات الحروف العربية من حيث الجهر، والهمس، والشدة والرخاوة، والإطباق والانفتاح، والاستعلاء والانخفاض، والصحة والاعتدال، والسكون والحركة، والأصل والزيادة.(٣)

-صفات الحروف العربية:

مخارج الحروف في اللغة العربية بمثابة الموازين والمقادير، فمن خلالها يستطيع الناقد الحكم على اللفظة، فيميز الجيد من السيء، والموافق للسياق من عدمه، واللفظة القوية من الضعيفة، والصوت اللغوي يتكون من مخارج الحروف، وصفات الحروف، فالمخارج والصفات تشكلان الصوت اللغوي، وإهمال أحدهما إهمال للآخر، وفي هذا المبحث سيكون الكلام عن صفات الحروف العربية، لأنها عنصر مهم في الحكم على جرس اللفظة

(١) – جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال (ص١٢٥) دار الرشيد للنشر: بغداد (د.ط) ١٩٨٠م.

(٢) – ينظر: الحركات في اللغة العربية: دراسة في التشكيل الصوتي، د. زيد خليل القرالة (ص٣) عالم الكتب الحديث: إربد، ط١/ ١٤٢٥هـ.

(٣) – ينظر: سر صناعة الإعراب، لابن جني (١/ ٦٠-٦٧) تحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم: دمشق، ط٢/١٤١٣هـ.

المفردة، وقد تكلم سيبويه (ت١٨٠هـ) عن هذه الصفات في الكتاب[١]، ووافقه ابن جني (٣٩٢هـ) في سر صناعة الإعراب.

وصفات الحروف على قسمين:

الأول: صفات لها ضد، والثاني: صفات لا ضد لها.

فالصفات التي لها ضد خمس صفات:

١- الجهر وضده الهمس. ٢- الشدة والتوسط وضدهما الرخاوة.

٣- الاستعلاء وضده الاستفال. ٤- الإطباق وضده الانفتاح.

٥- الإصمات وضده الإذلاق.

والصفات التي ليس ضد سبع صفات:

١- الصفير. ٢- القلقلة. ٣- اللين. ٤- الانحراف.

٥- التكرير. ٦-التفشي. ٧-الاستطالة.

ونحاول في هذا المبحث إيجاز القول حول هذه الصفات، وبيان ماهيتها باختصار، والحروف التي تشملها.

القسم الأول: الصفات التي لها ضد:

١- الجهر وضده الهمس:

عرف سيبويه (ت ١٨٠هـ) وابن جني (ت٣٩٢هـ) الحرف المجهور بأنه: الحرف الذي أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه، حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت، والحرف المهموس عندهما هو: الحرف الذي أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس، والحروف المهموسة عشرة، هي: الهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين،

(١) – ينظر: الكتاب لسيبويه (٤/٤٣٤-٤٣٦) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض – الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.

والصاد، والتاء والسين، والثاء، والفاء، مجموعة في قولك: (فحثه شخص سكت)، وباقي الحروف مجهورة.[١]

فالجهر: منع جري النفس عند النطق بالحرف؛ لقوة الاعتماد على المخرج، والهمس: جريان النفس عند النطق بالحرف؛ لضعف الاعتماد على المخرج، فالحرف المهموس هو الذي ضَعُف الاعتماد في موضعه ومخرجه حتى جرى النفس معه.

ومن علماء الأصوات المحدثين من يرى أن الصوت المجهور: هو الذي يهتز معه الوتران الصوتيان، والصوت المهموس: هو الذي لا يهتز معه الوتران الصوتيان، ولا يسمع لهما رنين حين النطق به، والحروف المجهورة عندهم ثلاثة عشر حرفاً، هي: الباء، والجيم، الدال، والذال، والراء، والزاي، والضاد، والظاء، والعين، والغين، واللام، والميم، والنون، يضاف إليها كل أصوات اللين بما فيها: الواو، والياء، أما الأصوات المهموسة فعددها اثنا عشر حرفاً، وهي: التاء، والثاء، والحاء، والخاء، والسين، والشين، والصاد، والطاء، والفاء، والقاف، والكاف، والهاء.[٢]

٢- الشدة والتوسط، وضدهما الرخاوة.

الحرف الشديد عند سيبويه وابن جني: هو الحرف الذي يمنع الصوت من أن يجري فيه، والحروف الشديدة مجموعة في قولك: (أجدت طبقك)، والحرف الرخو: هو الذي يجري فيه الصوت، والحروف التي بين الشديدة والرخوة (المتوسطة) مجموعة في قولك: (لم يرو عنا)، وما سوى هذه الحروف والحروف الشديدة هي الحروف الرخوة[٣]، وهذا هو اختيار ابن

(١) – ينظر: الكتاب لسيبويه (٤/٤٣٤) سر صناعة الإعراب (١/ ٦٠).
(٢) – ينظر: الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس (ص٢١-٢٢) مطبعة نهضة مصر (د.ط)(د.ت).
(٣) – ينظر: الكتاب لسيبويه (٤/٤٣٤) سر صناعة الإعراب (١/ ٦١).

جني للحروف المتوسطة، أما سيبويه فلم يذكر إلا حرفاً واحداً متوسطاً بين الشدة والرخاوة وهو حرف العين.(١)

فالحرف الشديد هو الذي يمتنع الصوت أن يجري فيه لكمال قوة الاعتماد على مخرج الحرف، فينحبس الصوت عند النطق بالحرف، ويعتمد على المخرج، والحرف الرخو هو الذي يجري فيه الصوت لضعف الاعتماد على مخرجه مع نَفَس قليل، والحرف المتوسط بين الشدة والرخاوة هو الحرف الذي لا ينحبس انحباسة قوية، ولا يجري جرياناً كاملاً، فهو متوسط بين الشدة والرخاوة.

ومن علماء الأصوات المحدثين من يرى أن الأصوات الشديدة هي: التي ينحبس الهواء معها عند مخرج كل منها، انحباساً لا يسمح بمروره حتى ينفصل العضوان فجأة، ويحدث النفس صوتاً انفجارياً، وتسمى الأصوات الانفجارية وهي: الباء والتاء والدال والطاء والضاد والكاف والقاف، أما الأصوات الرخوة فهي التي لا ينحبس الهواء معها انحباساً محكماً عند النطق بها، وإنما يكتفى بأن يكون مجراه ضيقاً، وتسمى الأصوات الاحتكاكية، وهي: السين والزاي والصاد والشين والذال والثاء والظاء والفاء والهاء والحاء والخاء والغين، أما الأصوات التي بين الشديدة والرخوة فهي: اللام والنون والميم والراء، ويسميها المحدثون الأصوات المائعة.(٢)

(١) – ينظر: الكتاب لسيويه (٤/٤٣٥).

(٢) – ينظر: الأصوات اللغوية (ص٢٤-٢٦).

٣- الإطباق وضده الانفتاح.

الإطباق هو: أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقاً له، وحروفه أربعة: الضاد، والطاء، والصاد، والظاء، وما عداها فمفتوح غير مطبق.(١) "وإنما سميت بحروف الإطباق؛ لأن طائفة من اللسان تنطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق بهذه الحروف، وينحصر الريح بين اللسان والحنك الأعلى عند النطق بها مع استعلائها في الفم، وبعضها أقوى في الإطباق من بعض."(٢)

فالإطباق هو رفع اللسان إلى الحنك الأعلى، كأنها ملاصق له، والانفتاح هو انفتاح ما بين اللسان والحنك، وخروج النفس من بينهما عند النطق بالحرف.

٤- الاستعلاء وضده الانخفاض (الاستفال).

الاستعلاء هو ارتفاع اللسان عند النطق بالحرف إلى الحنك الأعلى، وهي سبعة: الخاء والغين والقاف والضاد والطاء والصاد والظاء، والانخفاض هو: انخفاض اللسان من الحنك إلى قاع الفم، وحروفه واحد وعشرون حرفاً، وهي ما عدا حروف الاستعلاء.(٣)

٥- الإصمات وضده الإذلاق.

الإصمات هو منع الحروف من أن يبنى منها وحدها كلمة رباعية الأصول، أو خماسية، لثقلها على اللسان، وهي ثلاثة وعشرون حرفاً، والإذلاق: الاعتماد عند النطق بالحرف على ذلق اللسان، وهو صدره وطرفه، وحروفها ستة، مجموعة في قولك: (فر من لب)، فالإصمات هو

(١) – ينظر: الكتاب لسيبويه (٤/٤٣٦) سر صناعة الإعراب (١/ ٦١).

(٢) – الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب (٦٣) تحقيق: مؤسسة قرطبة، ط١/٢٠٠٥م.

(٣)- ينظر: سر صناعة الإعراب (١/ ٦٢).

منع بناء الكلمة الرباعية أو الخماسية من دون حروف الذلاقة الستة، فأي كلمة رباعية أو خماسية خالية من حروف الذلاقة فهي دخيلة على العربية.(١)

ويرى الدكتور إبراهيم أنيس: "أن كلمة الذلاقة هنا لا تعني أكثر من معناها الشائع المألوف، وهو القدرة على الانطلاق في الكلام بالعربية دون تعثر أو تلعثم، فذلاقة اللسان كما نعلم جودة نطقه وانطلاقه في أثناء الكلام، ولما كانت هذه الحروف الستة هي أكثر الحروف شيوعاً في الكلام العربي أطلق عليها حروف الذلاقة، دون النظر إلى مخرجها أو صفاتها أو أي ناحية من نواحي الدراسة الصوتية."(٢)

- **القسم الثاني: الصفات التي ليس لها ضد، وهي سبع:**

١- **الصفير:** سميت بهذا الاسم لصوت يخرج معها عند النطق بها يشبه الصفير، وهي ثلاثة أحرف: (الزاي والسين والصاد).(٣)

٢- **القلقلة:** وصف ابن جني حروف القلقلة بالحروف المشربة، وذكر أنها تحفز في الوقف، وتضغط عن مواضعها، فلا تستطيع الوقوف عليها إلا بصوت، وذلك لشدة الحفز والضغط، وهي: القاف والجيم والطاء والدال والباء.(٤)

وذكر ابن الجزري (ت٨٣٣هـ) أن هذه الحروف سميت بحروف القلقلة؛ "لأنها إذا سكنت ضعفت، فاشتبهت بغيرها، فيحتاج إلى ظهور صوت يشبه النبرة حال سكونهن في الوقف وغيره إلى زيادة إتمام النطق

(١)- ينظر: المرجع السابق (١/ ٦٤-٦٥).
(٢) - الأصوات اللغوية (١٠٩).
(٣) - ينظر: الرعاية لتجويد القراءة (٦٤) سر صناعة الإعراب (٨١٧/٢).
(٤) - ينظر: سر صناعة الإعراب (٦٣/١).

بهن، فذلك الصوت في سكونهن أبين منه في حركتهن وهو في الوقف أمكن."[١]

٣- **اللين**، وهما حرفان (الواو والياء).[٢]

٤- **الانحراف**، وهو صفة حرف اللام، وسمي بذلك؛ لأن اللسان ينحرف فيه مع الصوت.[٣]

٥- **التكرير**، وهو صفة حرف الراء؛ لأنه حين الوقف عليه يتعثر طرف اللسان يتعثر بما فيه من التكرير.[٤]

٦-**التفشي**، وهو حرف واحد (الشين) وسمي بذلك؛ لأنها تفشت في مخرجها عند النطق بها حتى اتصلت الظاء.[٥]

٧-**الاستطالة**، وهو حرف واحد (الضاد)، وسمي بذلك لأنه استطال عن الفهم حين النطق به حتى اتصل بمخرج اللام.[٦]

- **الجرس في الألفاظ المفردة في القصة القرآنية:**

الجرس الصوتي والإيحائي في القصة القرآنية له أثر عظيم في تجلية المعاني، ودلالتها على المراد، وتأثيرها في النفوس، وإبراز الحالة الداخلية والنفسية للأشخاص، لتتقبل نفوس السامعين والمتلقين الغرض الذي جاءت من أجله القصة، فالجرس الصوتي من مظاهر الإعجاز في النظم القرآني، ومن وسائل إقناع المتلقين والتأثير فيهم.

---

(١) – النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (٢٠٣/١) مراجعة: علي محمد الضباع – دار الكتب العلمية: لبنان (د.ط)(د.ت).

(٢) – المرجع السابق (٢٠٤/١).

(٣)– ينظر: سر صناعة الإعراب (٦٣/١).

(٤) – ينظر: المرجع السابق (٦٣/١).

(٥) – ينظر: الرعاية لتجويد القراءة (٧٣).

(٦)– ينظر: النشر في القراءات العشر (٢٠٥/١).

فالجرس في اللفظة المفردة يختلف من لفظة لأخرى، ومن سياق لآخر، فمن الألفاظ ما هو حسن الجرس في حال الإفراد، ومنها ما هو غليظ الجرس ثقيل في حال التثنية، فكل لفظة تحمل في طبيعة صياغتها نغماً تعبيرياً، يميزها عن غيرها. (١)

والجرس من مميزات القرآن الكريم، ففي كل سورة منه وآية، وفي كل مقطع منه وفقرة، وفي كل مشهد منه وقصة، وفي كل مطلع منه وختام، يمتاز بأسلوب إيقاعي غني، وجرس عجيب، مملوء نغماً، فالإيقاع، والجرس في الألفاظ يتناسب مع المعاني الذهنية، والدلالات الحسية الموجودة في الألفاظ، وهذا يعني أن اللفظة لم تسق عبثًا أو صدفة، إنما أبدعها قائلها الأعظم، فكانت غاية في الروعة والإتقان، من حيث ترتيب الحروف، وأصواتها ومخارجها.(٢)

وقد عني القرآن الكريم باختيار اللفظة المناسبة في قصصه، فاختار اللفظة ذات الصوت المناسب، للمشهد المناسب، بحيث تكون في موقع لا يصلح غيرها مكانها، دالة على المعنى المراد بدقة عجيبة، وإعجاز بديع.

فاللفظة القرآنية عموماً تحمل جرساً عجيباً، وإيقاعاً مؤثراً، يؤثر في النفوس، ويضفي على السياق أثراً، وعلى السمع جمالاً، ويزيد المعنى اتساقاً.

(١) – ينظر: جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب (ص١٧٠).

(٢) – ينظر: الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، د. عيد شبايك (ص٨٢–٨٥) دار حراء: القاهرة، ط١/١٤١٣هـ.

المبحث الثاني: دراسة تطبيقية على قصة مريم في سورة مريم.

في هذا المبحث سأتتبع دلالة الجرس الصوتي في قصة مريم المذكورة في سورة مريم، حيث وردت قصة مريم وحملها بابنها عيسى –عليه السلام– في سورتي آل عمران، ومريم، ولتشابه مشاهد القصة في السورتين، سأكتفي بما ورد في سورة مريم.

وقد جاءت قصة مريم بعد أن ذكر الله تعالى قصة زكريا –عليه السلام– وما فيها من معجزات، فقد رزق الله زكريا الولد وهو في حال عجز وضعف، فقد بلغ بزكريا –عليه السلام– الضعف والوهن بسبب الكبر، وكانت زوجته عاقراً لا تلد، ثم أتبعت هذه القصة بقصة أغرب منها، وهي ولادة عيسى –عليه السلام– من أم فقط وبدون أب، إشارة إلى أنه تعالى يخلق ما يشاء تارة بسبب قوي، وتارة بسبب ضعيف، وتارة بلا سبب.[1]

وجاءت قصة مريم في ثلاثة مشاهد، المشهد الأول: مشهد الذهول والصدمة، وهو يحكي حال مريم مع جبريل –عليه السلام– حين قطع خلوتها، وأبلغها بالولد، واستغرابها من هذا الأمر، والمشهد الثاني: مشهد الحقيقة، وهو يحكي حال مريم حين حملت بعيسى –عليه السلام– والصعوبات التي عاشتها، والمشهد الثالث: مشهد المواجهة، وفيه تصوير لحال مريم مع قومها عندما جاءتهم وهي تحمل ابنها، ثم حصول المعجزة الربانية بنطق الطفل الرضيع، وكونه عبداً لله، ودفاعه عن أمه الطاهرة.

(١) – ينظر: نظم الدرر للبقاعي (١٢/١٨١-١٨٢) دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة (د.ط)(د.ت).

١- المشهد الأول:

يقول تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾[1]

في هذه الآيات يأمر الله تعالى نبيه محمداً -صلى الله عليه وسلم- بتذكر خبر وقصة مريم حين تباعدت وانعزلت عن أهلها للعبادة، واتخذت لنفسها مكاناً جهة الشرق، فجعلت بينها وبينهم حاجزاً وستراً يسترها عنهم، فأرسل الله -عز وجل- إليها جبريل -عليه السلام- متمثلاً لها في صورة إنسان سوي تام الخلقة، فتفاجأت به، وقالت له: إني أستجير بالرحمن منك أن تنالني بسوء إن كنت ممن يتقي الله، فأجابها: إنما أنا رسول ربك بعثني إليك؛ لأهب لك غلاماً طاهراً من الذنوب، فقالت له متعجبة مستنكرة: كيف يكون لي غلام، ولم يمسسني بشر بنكاح حلال، ولم أك زانية؟ فقال لها الملك: هكذا الأمر من الله، والأمر سهل عليه؛ وليكون هذا الغلام علامة للناس تدل على قدرة الله تعالى، ورحمة منه، وكان أمر وجود عيسى على هذه الحالة قضاء سابقاً مقدراً.[2]

هذا المشهد مليء بالذهول والتعجب والاستنكار، بدأ حين انتبذت مريم أهلها، وانقطعت لعبادة ربها، وتخلله حوارها مع جبريل-عليه السلام-، وانتهى بإعلامها بخبر حملها بغلام يكون آية للناس، ورحمة لهم.

---

(١) سورة مريم (١٦-٢١).

(٢) - ينظر: التفسير الميسر، تأليف: نخبة من أساتذة التفسير (٣٠٦) مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الثانية - ١٤٣٠هـ.

-الدراسة التحليلية لآيات المشهد الأول:

يقول تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾

أصل النبذ الطرح والإلقاء، ومعناه تباعدت وانفردت وتنحت إلى مكان ناحية الشرق، ومع بعدها عن أهلها إلا أنها اتخذت من دونهم حجاباً مستوراً، فهي لم تقتصر على الانعزال والانفراد، بل جعلت بينها وبين أهلها حائلاً من حائط أو غيره.(١)

وقد بدأت هذه الآية بفعل الأمر (واذكر)، فالجملة إنشائية طلبية، جاءت بصيغة الأمر، الدال على الحث والترغيب للاطلاع على خبر مريم؛ اهتماماً بخبرها، وتشويقاً للأحداث التي حصلت لها، وتقديم (في الكتاب) على (مريم) لشرف هذا الكتاب، وشرف من ذكر فيه، ولعلو منزلته.

ولفظة (مكاناً) جاءت بصيغة النكرة؛ إبهاماً له، إذ لا فائدة مهمة من تعيينه، ولعدم تعلق الغرض ببيان وصفه وشكله.(٢)

واختيرت لفظة (انتبذت) دون غيرها من الألفاظ التي تحمل نفس المعنى، لما يدل عليه هذا اللفظ من انعزال تام، وبعد عن الناس، حتى عن أقرب الناس لها، فهو يفيد تمام الانعزال والانقطاع.

والسامع للفظة (انتبذت) سيتوقف عندها، وستلفت انتباهه، لما لها من جرس قوي، وإيحاء بليغ، فالتاء حرف مهموس، يجري النفس معه حين النطق به، وهو حرف شديد انفجاري، والذال حرف مجهور يهتز معه الوتران الصوتيان، ويمنع جري النفس عند النطق به، وهو حرف رخو احتكاكي، ينتج بدفع الهواء عبر ممر ضيق مما يحدث صوتاً مسموعاً ملفتاً، فالجرس الذي تحدثه هذه اللفظة يتميز عن الألفاظ الأخرى التي تحمل نفس المعنى،

(١) – ينظر: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للرازي (٥٢٠/٢١) دار إحياء التراث العربي: بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.

(٢) – ينظر: التحرير والتنوير (٨٠/١٦) (د.ط) ١٩٨٤م، الدار التونسية للنشر: تونس.

فقد أفاد تمام العزلة والانقطاع والخلوة لعبادة الله، فلا يصرفها عن ذلك صارف، فحب الاختلاء بالرب من صفات العبّاد الصالحين، الذين يحاولون البعد عن أي شيء يصرفهم عن الخلوة بالله.

يقول تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾

اتخذت مريم كل الأسباب الممكنة لانعزالها عن الناس، والبعد عنهم، إلا أنها تفاجأت برجل غريب تام الخلقة يدخل عليها، ويقطع خلوتها.

(بشراً سوياً) تمثّل لها الملك في صورة إنسان تام الخلقة؛ لتستأنس بكلامه، ولا تنفر عنه، فلو ظهر لها في صورة الملائكة لهابته وخافت منه، ونفرت عنه، ولم تقدر على استماع كلامه.(١)

لاحظ الجرس في لفظة (اتخذت)، فالتاء والخاء من حروف الهمس، والتاء حرف شديد انفجاري، والخاء حرف رخو احتكاكي، والذال حرف مجهور يهتز معه الوتران الصوتيان، ويمنع جري النفس عند النطق به، وهو حرف رخو احتكاكي، يحدث صوتاً مسموعاً ملفتاً، كل هذه الأصوات تشعرك بأن مريم بذلت جهداً عظيماً، ومشقة كبيرة في الاعتزال للعبادة.

وجرس الفاصلة في هذه الآية لفظة (سوياً)، وجاءت هذه اللفظة نعتاً لكلمة (بشراً)، فلفظة (سوياً) فيها تناغم بارز، وشعور بالراحة والاطمئنان، فحرف السين حرف مهموس، لا يسمع له رنين حين النطق به، وهو كذلك حرف رخو، لا شدة فيه، وحرف الواو حرف مجهور، ومتوسط بين الشدة والرخاوة، ثم ختمت اللفظة بحرف الياء مع ألف المد الذي يوافق حالتها النفسية، وصدمتها بالبشر الذي تمثل أمامها، وهذا مناسب لحالة مريم في هذه الآية، فالفزع أصابها بدخول الغريب عليها، فلو اكتفى السياق بكلمة

(١) – ينظر: مفاتيح الغيب للرازي (٢١/٥٢١).

بشر، لاحتمل ذلك أن يكون هذا البشري كبير الحجم، أو مخيف الشكل، لكن جاءت لفظة (سوياً) بجرسها العجيب؛ لتهدي روعتها، وتخفف فزعها.

يقول تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾

جاءت جملة (إني أعوذ بالرحمن منك) خبرية مؤكدة بحرف التأكيد، لتخبره بأنها جعلت الله بينها وبينه، ولتذكره بتقوى الله، موعظة له إن كان من أهل الموعظة والتقوى[1]، كما أن استعاذتها دليل على عفتها، فهي لم تعتد على رؤية الرجال في خلواتها، وانعزالها لعبادة ربها.

وجاء الفعل (أعوذ) بصيغة المضارع؛ للدلالة على التجدد والاستمرار، فمريم تلتجئ إلى ربها وتعوذ به في كل وقت، كما أن اختيارها لاسم (الرحمن) استرحاماً للرجل الذي أمامها، وشرطها عندما قالت: (إن كنت تقياً) لتحريك وازع التقوى عنده، كما أن لفظة (تقياً) صيغة مبالغة، تدل على أن عظمة التقوى تقف حاجزاً وسداً منيعاً أمام المعاصي والذنوب.

لاحظ الجرس القوي في كلمة (أعوذ)، فالعين حرف مجهور، وهو حرف متوسط بين الشدة والرخاوة، والواو حرف مجهور، ومتوسط بين الشدة والرخاوة، والذال حرف مجهور يهتز معه الوتران الصوتيان، ويمنع جري النفس عند النطق به، وهو حرف رخو احتكاكي، ينتج بدفع الهواء عبر ممر ضيق مما يحدث صوتاً مسموعاً ملفتاً، ثم ختمت اللفظة بحرف الياء مع ألف المد الذي يوافق ضعفها، ورعبها من الشخص الذي أمامها.

يقول تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾

جاء جواب الملك بصيغة القصر حين ذكرته بالتقوى اعتقاداً منها أنه بشر، فقال: (إنما أنا رسول ربك) وهو قصر إضافي، فلست بشراً، فأنا رسول إليك من ربك الذي خلقك، وخلوت للعبادة من أجله، ففيه إدخال للطمأنينة عليها.[2]

(١) – ينظر: التحرير والتنوير (٨١/١٦).

(٢) – ينظر: التحرير والتنوير (٨١/١٦).

ولم يقل: رسول الله، وإنما عبر باسم الرب المقتضي للإحسان؛ لطفاً بها، وقدم المتعلق في (لك) تشويقاً إلى المفعول، ليكون أوقع في النفس، (غلاماً زكياً) (غلاماً) أي ولداً ذكراً في غاية القوة والرجولة، طاهراً من كل ما يدنس البشر.(١)

لاحظ فاصلة الآية لفظة (زكياً)، فحرف الزاي حرف مجهور، وهو حرف رخو احتكاكي، والكاف مهموس، وهو حرف شديد انفجاري، ثم ختمت اللفظة بحرف الياء المشدد مع ألف المد، وذلك للتأكيد على أن الهبة عظيمة، فهو غلام زكي مطهر، ليس كغيره من البشر، ففي هذه البشارة تعويض لها على عفتها وطهارتها.

يقول تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

في هذه الآية كأن مريم من فرط تعجبها واستنكارها، لم تلتفت إلى الوصف (زكياً) في قول الملك في الآية السابقة، والذي ينفي كل ريبة وتهمة، فأتى جوابها بذكر الموصوف وحده (بشر)، وأخذت في تقرير نفيه على أبلغ وجه، وأكمل رد.(٢)

والمسّ مأخوذ من الفعل (مسس)، جاء في لسان العرب: "مسس: مَسِسْتُه، بِالْكَسْرِ، أَمَسُّه مَسّاً ومَسيساً: لَمَسْتُه، هذه اللُّغَة الْفَصِيحَةُ، ومَسَسْتُه (بِالْفَتْحِ)، أَمُسُّه (بِالضَّمِّ) لُغَةٌ،... وَيُقَالُ: مَسِسْتُ الشيءَ، أَمَسُّه مَسّاً لَمَسْتَه بيدك، ثم استعير للأخذ والضرب لأنهما باليد، واستعير للجماع لأنه لمس، وللجنون كأن الجن مسته، يقال: به مس من جنون، وقوله تعالى: (ولم يمسسني بشر) أي لم يمسسني على جهة تزوج، ولم أك بغياً، أي ولا قربت على غير حد التزوج."(٣)

---

(١) – ينظر: نظم الدرر (١٨٤/١٢).

(٢) – ينظر: روح المعاني، للألوسي (٣٩٧/٨) دار إحياء التراث العربي: بيروت (د.ط)(د.ت).

(٣) – لسان العرب: مادة (مسس).

وجاءت لفظة (بشر) نكرة في سياق النفي، لتعم كل بشر، فينتفي مسيس كل بشر كائناً من كان.[١]

(ولم أك) لما سمعت مريم كلام الملك، هالها هذا الأمر، فأسرعت للدفاع عن نفسها، وألقت ما تريد من المعاني لعلها تستريح من صدمتها، فأوجزت حتى بحذف النون من كان، فقالت: (ولم أك)، ولتفهم أن هذا المعنى منفي، وقالت: (بغياً) ولم تقل (بغية) لغلبة إيقاعه على النساء، فكان مثل حائض، وعاقر في عدم الإلباس، ولأن لفظة بغية لا تقال إلا للمتلبسة به.[٢]

(ولم أك بغياً) تخصيص بعد تعميم، لأن مسيس البشر يكون بنكاح وبسفاح، فذكرت هذا تأكيداً لعفتها ولطهارتها[٣]، وكررت حرف النفي (لم) مرتين؛ لتأكيد طهرها، وبيان عفتها.

وهذا استنكار صريح وبلفظ واضح، لأنها تدافع عن عرضها، فلا ينفع حينئذ الحياء، ولا يفيد حينئذ السكوت، بل لا بد من المواجهة والصراحة، وتأكيد القول.

هذه الآية تلقي الضوء على مشهد واضح، وردة فعل جلية، مشهد طغى عليه الذهول، وسيطر عليه التعجب، وتبين ردة فعل إنسانة طاهرة متعجبة مستنكرة من خبر نزل عليها كالصاعقة.

إن المتأمل لهذه الآية يلحظ الإيقاع البديع، والجرس الجميل في كلمة (يمسسني)، فقد جاءت بإيقاع خافت، وجرس هادئ، يناسب الحالة النفسية التي كانت عليها مريم، ويوافق الذهول والتعجب الذي أصابها،

---

(١) – ينظر: أضواء البيان، للشنقيطي (٣٨٨/٣) دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع: بيروت – لبنان (د.ط) ١٤١٥هـ.

(٢) – ينظر: نظم الدرر (١٨٥/١٢).

(٣) – ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان (٢٤٩/٧) تحقيق: صدقي محمد جميل، (د.ط)، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ.

فحرف السين جاء مكرراً مفكوكاً غير مشدد، وهو حرف مهموس، لا يهتز معه الوتران الصوتيان، ولا يسمع له رنين حين النطق به، وهو كذلك حرف رخو، ومن حروف الصفير، ومن المعلوم أن حروف الصفير من أكثر الحروف رخاوة، فالهمس والرخاوة من الصفات الضعيفة، وهذا يناسب حالة الذهول والتعجب التي كانت تعيشها مريم –عليها السلام– حين سمعت التبشير بالغلام، فجرس السين بما فيه من همس ورخاوة وصفير، يناسب الحالة التي كانت عليها مريم من ضعف وخوف وذهول، فصور حالتها وهي تناجي ربها، وتلتجئ إليه، بتصوير معبر، وجرس قوي، وإيقاع مؤثر.

فهذا المشهد العجيب، والموقف الرهيب، جاء بإيقاع جميل، وجرس بديع، يصور المشهد المنقول، بجرس هادئ، وإيقاع مؤثر، ودقة متناهية، يوافق الحالة النفسية لبطل المشهد، وقد استفيد هذا الجرس المؤثر، والإيقاع المصور، من تكرار حرف السين في الفعل (يمسسني)، وما يحمله من همس ورخاوة.

ولقد زاد من جمال هذا الإيقاع، وروعة هذا الجرس، التناسق الواضح، والتوافق الرائع، بين الحروف وأصواتها في كلمة (يمسسني)، وبين الموقف العجيب لمريم – عليها السلام–، فالهمس والرخاوة والصفير في كلمة (يمسسني) صورت مناجاة مريم لربها، وتضرعها إليه لكشف كربها.

يقول تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

هذه الآية هي ختام المشهد الأول، وفيها جواب على كل التساؤلات التي طرحتها مريم في الآية السابقة، فكان الجواب: هذا الأمر من عند الله، وهو عليه سهل وهين، وهذا الغلام سيكون علامة للناس، تدل على قدرة الله تعالى، ورحمة منه، وكان أمر وجود عيسى على هذه الحالة قضاء سابقاً مقدراً، فما يملك الإنسان حينئذ إلا الرضا والتسليم.

وجاء جواب الملك على تساؤلات مريم على طريقة الأسلوب الحكيم، فعدل عن إبطال مرادها من المراجعة إلى بيان هوان هذا الخلق في جانب

قدرة الله عز وجل، والضمير (هو) يعود إلى ما تضمنه حوارها من لحاق الضر بها.[١]

والجملة في قوله تعالى: (هو علي هين) جملة اسمية، تفيد الاستقرار والدوام والثبات، فكل شيء عند الله هين.

وقوله: (ولنجعله) عطف على قوله: (فأرسلنا إليها روحنا) باعتبار ما في ذلك من قول الروح لها لأهب لك غلاما زكيا، أي لأن هبة الغلام الزكي كرامة من الله لها، وجعلهآية للناس ورحمة كرامة للغلام، فوقع التفات من طريقة الغيبة إلى طريقة التكلم.[٢]

والمراد بالآية في قوله: (آية للناس) أي عبرة وبرهان على قدرة الله، والمراد بالرحمة: أي لطفاً وشرعاً للناس، وما كان سبباً في قوة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح، فهو جدير بالتكوين.[٣]

وجاءت لفظة (رحمة) نكرة منونة، لبيان عظيم رحمة الله بخلقه، ثم أتبعت بحرف التخصيص (منا) دلالة على اختصاصه بها، وأنه أرحم الراحمين.

وجملة (وكان أمرا مقضياً) قد تكون من قول جبريل –عليه السلام–، وقد تكون مستأنفة، وضمير (كان) عائد إلى الوهب المأخوذ من قوله: (لأهب لك غلاماً)، وهذا قطع للمراجعة، وحسم للموضوع، وإنباء بأن خلق الغلام قد انتهى وصار محسوماً.[٤]

عند تأمل لفظة (مقضياً) سنلحظ أن حرف القاف حرف مهموس، شديد انفجاري، وحرف الضاد حرف مهموس، شديد انفجاري، فاشترك الحرفان بنفس الصفات، وتبعهما حرف الياء المشدد مع ألف المد، وذلك

(١) – ينظر: التحرير والتنوير (٨٣/١٦).
(٢) – ينظر: التحرير والتنوير (٨٣/١٦).
(٣) – ينظر: الكشاف، الزمخشري (١٠/٣).
(٤) – ينظر: التحرير والتنوير (٨٤/١٦).

للتأكيد على أن الأمر محسوم، وهو قضاء نافذ من الله، فكل شيء بقضاء الله وقدره.

والمشهد الأول الذي جاء في هذه الآيات مليء بالصورة العقلية والذهنية، ففيه استنكار من العقل لشيء لم يعهده، فأول ما تبادر إلى ذهن مريم سؤال سريع: كيف بامرأة تحمل بغلام في بطنها من دون زواج أو سفاح؟ وكيف لامرأة انعزلت لطاعة الله أن تأتي قومها بغلام تحمله؟ فهذا الصراع من شأنه أن يربك الإنسان، ويجعله في أضعف حالاته، حتى أن مريم تمنت الموت قبل أن يحصل لها هذا الأمر، لكن العبد المؤمن سرعان ما يسلم أمره لله، ويرضى بقضاء الله وقدره، وهذا ما كان من مريم عليها السلام.

٢- المشهد الثاني:

يقول تعالى: ﴿۞فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾[1]

هذا المقطع يصور المشهد الثاني من قصة مريم عليها السلام، وهو مشهد الحقيقة، فيصور حالها عندما حملت بعيسى -عليه السلام-، والصعوبات التي عاشتها عند الولادة، وتمنيها للموت قبل أن يحصل لها هذا الأمر.

فمريم حملت بالغلام بعد أن نفخ جبريل -عليه السلام- فيها، فتباعدت بحملها إلى مكان بعيد عن الناس، فألجأها طلق الحمل إلى جذع النخلة، فقالت وهي تتألم: يا ليتني مت قبل هذا اليوم، وكنت شيئاً لا يُعرف،

(١) - سورة مريم (٢٢-٢٦).

ولا يُـذكر، فناداهـا مـن تحتهـا (قيـل هو:جبريـل، وقيـل: هـو عيسـى) أن لا تحزني، قد جعل ربك تحتك جدول ماء، وحركي جذع النخلة تساقط عليك رطباً طرياً، فكلي من الرطب، واشربي من الماء، وطيبي نفسا بالمولود، فإن رأيت أحداً من الناس فسألك عن أمرك، فقولي له: إني أوجبت على نفسي لله سكوتاً، فلن أكلم اليوم أحداً.(١)

-الدراسة التحليلية لآيات المشهد الثاني:

يقول تعالى: ﴿۞فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

اعتزلت مريم الناس، وحملها لا يزال في بطنها، فابتعدت عن الناس، في مكان قصي بعيد، والباء في (به) للملابسة والمصاحبة.(٢)

والفاء في قوله: (فحملته) تدل على التعقيب، وأن أمر الله نافذ سريع، فحملها لم يتأخر، بل كان في حينه.

يقول الشيخ الشعراوي معلقاً على تكرار لفظة (انتبذت): "لا تظن أن هذه اللقطة من القصة لقطة معادة، فالانتباذ الأول كان للخلوة للعبادة، وهنا (فانتبذت به) أي: ابتعدت عن القوم لما أحست بالحمل، وخشيت أعين الناس وفضولهم، فخرجت إلى مكان بعيد."(٣)

لفظة (قصياً) جاءت على وزن فعيل بمعنى فاعل، من قصى يقصو إذا بعد(٤)، فهي صيغة مبالغة، تدل على ابتعادها كثيراً عن الناس لمكان قصي لا يصلون إليه، خوفاً منهم، ومن ألسنتهم، وفيه دلالة على أن همها كبير، وحزنها عميق.

(١) – ينظر: التفسير الميسر (٣٠٦-٣٠٧).
(٢) – ينظر: روح المعاني (٣٩٩/٨).
(٣) – تفسير الشعراوي (٩٠٦٢/١٥) (د.ط) (د.ت) مطابع أخبار اليوم.
(٤) – ينظر: التفسير البسيط، الواحدي (٢١٨/١٤) طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ط١/١٤٣٠هـ.

تأمل جرس الفاصلة في هذه الآية (قصياً)، فحرف الصاد حرف مهموس، وهو كذلك حرف رخو، لا شدة فيه، ثم ختمت اللفظة بحرف الياء مع ألف المد، وهذا فيه دلالة بعد المكان الذي ذهبت له مريم، للنأي عن الناس، رهبة منهم، ورعباً من نظراتهم، وهذا يدل على حالة مريم وضعفها، وخشيتها من أعين الناس وفضولهم.

يقول تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

(فأجآءها) الفعل أجاء: منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء، والتعريف في (النخلة) إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس، وإما أن يكون تعريف الجنس، أي: جذع هذه الشجرة خاصة[1]، وفي الآية دليل على أن المخاض ألجأ مريم إلجاءً مفاجئاً، واضطرها إلى جذع النخلة، ولهذا جاء بحرف الجر (إلى) وليس (عند).

(يا ليتني مت) تمنت مريم لو ماتت قبل أن تمر بهذا الموقف العصيب، وهذا موقف يختلف عن الموقف الأول، حين أخبرها جبريل بأن الله تعالى سيهب لها غلاماً زكياً، لأنها حينذاك تعجبت واستنكرت، وكان مجرد تعجب وانفعال هادئ، أمّا في هذا الموقف، وقد أصبح الأمر حقيقة ماثلة أمامها، واقتربت من ولادة غلامها، فلا بد من فعل فطري شديد، يعبر عما هي فيه من حيرة وضعف، لذلك تمنت الموت، وأن تكون نسياً منسياً، أي شيئاً تافهاً لا يهتم به، ولا يذكره أحد.[2]

(١) – ينظر: الكشاف (١١/٣) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود – علي محمد معوض، مكتبة العبيكان: الرياض، ط١/ ١٤١٨هـ.

(٢) – ينظر: تفسير الشعراوي (٩٠٦٣/١٥).

وجملة (يا ليتني) جملة إنشائية طلبية، جاءت بصيغة التمني، فهي تتمنى لو كانت شيئاً منسياً لا يذكر، وهذا فيه دلالة على الحالة الصعبة التي مرت بها مريم، وجعلتها تتمنى الموت.

(منسياً) وصف النسي بمنسي؛ للمبالغة في نسيان ذكرها، فهي لم تتمنَ الموت فقط، بل تمنت انقطاع ذكرها بين أهلها.[1]

تأمل دلالة الجرس الصوتي في لفظة (فأجاءها) فالهمزة ثقيلة وفي نطقها مشقة، وجاءت مجسدة لثقل مريم، وصعوبة حالتها، كما تأمل الجرس الصوتي لكلمتي (نسياً منسياً)، فبعد أن أصبح الأمر حقيقة أمام عيني مريم، وبعد أن أخذ الطلق منها، واقتربت من ولادة ابنها، أخذت الحيرة مأخذها منها، وضاقت عليها نفسها، فتمنت الموت، وهذا لا يكون إلا بعد شدة وكربة، وقد جاء جرس اللفظتين خافتاً هادئاً، يناسب الحالة النفسية التي تمر بها مريم، ويصور الكربة والشدة التي ألمت بها، فالسين حرف مهموس، لا يسمع له رنين حين النطق به، وهو كذلك حرف رخو، وحرف له صفير، فالهمس والرخاوة يناسبان حالة مريم الضعيفة آنذاك، وحرف الياء المشدد مع ألف المد، يناسبان حالة مريم، وكأنها حين تنطبق بهما تخرج زفراتها، وتخفف عن آلامها، فدلالة الجرس في (نسياً منسياً) جاءت مصورة لحالة مريم حين جاءها المخاض، وحالتها النفسية التي جعلتها تتمنى الموت.

يقول تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾

بعد أن تمنت مريم الموت، وتمنت انقطاع ذكرها، جاءها النداء الذي يسليها، ويذهب حزنها، فناداها من تحتها (قيل هو:جبريل، وقيل: هو عيسى) ألا تحزني قد جعل ربك تحتك جدول ماء تشربين منه.

(١) – ينظر: التحرير والتنوير (٨٦/١٦).

والفاء في لفظة (فناداها) تدل على سرعة استجابة الله لندائها ودعائها، فالفاء تدل على التعقيب، ففرج الله سريع عند التجاء العبد له، وصدق توجهه إليه.

وجملة (قد جعل ربك تحتك سرياً) خبر مراد به التعليل لجملة (ألا تحزني)، أي أن حالتك حالة جديرة بالسرور وليس الحزن؛ لما فيها من الكرامة الإلهية.(١)

وتقديم الظرف (تحتك) لإفادة القرب منها، وإدخال السرور إليها، كما أن الآية أكدت بـ (قد) للتأكيد على أن مريم ليست وحدها، فرعاية الله وحفظه يحطيان بها.

وحزن مريم قد يكون ناشئاً من وحدتها، وانقطاعها عن أهلها، وليس معها أحد يسندها ويساعدها، لذلك تعهدها ربها بتوفير الطعام والشراب لها، فأجرى تحتها النهر، وأمرها بهز النخل ليتساقط الرطب عليها، فوفر لها مقومات الحياة وعناصر استبقائها.(٢)

ولا شك أن المدود في (فناداها) و (تحتها) و (ألا) و (سريا) تناسب الحالة النفسية التي تعيشها مريم، فهي تعاني من الضعف والوهن، والمدود تؤدي إلى التنفيس عما بداخل الشخص، مما يؤدي إلى التخفيف عنه.

يقول تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾

(وهزي) هز الشيء: تحريكه إلى الجهات المتقابلة تحريكاً عنيفاً، والمراد هنا: الهز بطريق الجذب والدفع، بدليل قوله تعالى: (إليك) أي إلى جهتك.(٣) واختيرت اللفظة (هزي) للدلالة أن الأمور مربوطة بالأسباب، والهز يناسب حالة مريم، فهي في وضع لا يسمح بأكثر من هز النخلة،

(١) – ينظر: التحرير والتنوير (٨٧/١٦).
(٢) – ينظر: تفسير الشعراوي (٩٠٦٦/١٥).
(٣) – ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود) (٢٦٢/٥) دار إحياء التراث العربي: بيروت (د.ط)(د.ت).

فاجتمع عليها المخاض والأنوثة والوحدة، ومع ذلك يأمرها تعالى بهز النخلة، ففي هذا دليل على أن الرزق مناط بالعمل.

والفائدة في قوله: (وهزي إليك بجذع النخلة) "أن يكون إثمار الجذع اليابس رطباً ببركة تحريكها إياه، وتلك كرامة أخرى لها، ولتشاهد بعينها كيف يثمر الجذع اليابس رطباً، وفي ذلك كرامة لها بقوة يقينها بمرتبتها."[1]

(رطباً جنياً) أي: طرياً، وهذه آية أخرى عظيمة، تطيب النفس، وتذهب الحزن، وقراءة حفص عن عاصم بالضم وكسر القاف من فاعل (تُساقِط)، تدل على الكثرة، وأنه ظاهر في كونه من فعل مريم.[2]

هذا الآية تصور مشهداً رائعاً، مشهداً معجزاً، فالجذع اليابس تحول إلى رطب طري، ببركة تحريك مريم إياه، وتلك كرامة لها، ودليل قوي أن الله معها، وهذا المشهد احتوى على إيقاع بديع، وجرس جميل، بدئ بكلمة (هزّي) بجرسها الرنان، وإيقاعها البليغ، فهي صيغة أمر وطلب، وبالنظر إلى حرف الزاي، نجد أنه حرف مضعف مشدد، وهو حرف مجهور، له رنين قوي، وهو من الحروف الرخوة التي لها صفير، وحرف الزاي بما فيه من صفير يناسب طلب الهز والتحريك، وفعل الأسباب للبقاء على قيد الحياة، فهو يلفت الانتباه، وينبه الغافل، وهذا المشهد صورة حسية مليئة بالحركة، فالهز تحريك بقوة إلى جهات متقابلة، بطريقة الجذب والدفع، كما أن لفظة (تساقط) بأصوات حروفها (القاف والطاء) بما فيهما من همس، وشدة، فهما صوتان انفجاريان، تجسد صورة قوة تساقط الرطب وشدته، وأنه لم يكن رطباً قليلاً، بل كان كثيراً منهمراً.

يقول تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾

(١) – التحرير والتنوير (٨٨/١٦)

(٢) – ينظر: نظم الدرر (١٨٩/١٢).

قدم الأكل على الشرب في هذه الآية لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء.[١]

هذه الآية جاءت إنشائية طلبية، حيث بدئت بصيغ الأمر (كلي) و(اشربي) و(قري)، وصيغ الأمر هذه خرجت عن دلالتها الأصلية وهي الوجوب، إلى معنى وغرض آخر وهو الإباحة.

(قري): "قرأ الجمهور بفتح القاف، وحكى ابن جرير أنه قرئ بكسرها، قال: وهي لغة نجد، والمعنى: طيبي نفساً، وارفضي عنك الحزن، وهو مأخوذ من القرّ والقرّة، وهما البرد، والمسرور بارد القلب، ساكن الجوارح، وقيل: المعنى: وقري عيناً برؤية الولد الموهوب لك، وقال الشيباني: معناه نامي، قال أبو عمرو: أقر الله عينه، أي: أنام عينه وأذهب سهره."[٢]، فلما كان المحزون لا يهنأ بأكل ولا شرب أمرها الله عز وجل بالسرور، فقال لها: (وقري عينا).

وقال البقاعي: "أي استقري عيناً بالنوم، فإن المهموم لا ينام، والعين لا تستقر ما دامت يقظى، وعن الأصمعي أن المعنى: ولتبرد دمعتك، لأن دمعة الفرح باردة ودمعة الحزن حارة."[٣]

والمعنى: قري عينيك، لأن الإنسان له عينان، وليست عين واحدة، ومن المعلوم في اللغة العربية أن العرب تطلق العين وتريد العينين، فيأتي اللفظ بالإفراد بدلاً من التثنية، فعدل عن المثنى إلى المفرد، يقول الشعراوي: "بعد أن وفر لها الحق سبحانه الطعام والشراب الذي هو قوام المادة، وبه يتم استبقاء الحياة، لكن بعد الطعام والشراب يبقى لديها حزن عميق، وألم وحيرة

(١) – ينظر: مفاتيح الغيب (٥٢٨/٢١).

(٢) – فتح القدير (٣٨٩/٣) دار ابن كثير – دار الكلم الطيب : دمشق ، بيروت – ط١/ ١٤١٤هـ.

(٣) – نظم الدرر (١٩٠/١٢).

مما هي فيه؛ لذلك يعطيها ربها –تبارك وتعالى– بعد القوت الذي هو قوام المادة يعطيها السكينة والطمأنينة، ويخفف عنها ألم النفس وحيرة الفؤاد."[١]

"والنون في قوله: (ترينّ) نون التوكيد الشديدة اتصلت بالفعل الذي صار آخره ياء بسبب حذف نون الرفع؛ لأجل حرف الشرط، فحركت الياء بحركة مجانسة لها كما هو الشأن مع نون التوكيد الشديدة."[٢]

وفي اختيار اسم الرحمن في الآية دون غيره من الأسماء دلالة على استمرار رحمة الله بها، ورعايته لشؤونها.

هذا هو ختام المشهد الثاني، فهو مشهد مليء بالفعل والحركة، بداية من انعزال مريم عن أهلها عند ظهور الحمل عليها، ثم المخاض والالتجاء إلى جذع النخلة، ثم الأمر بهز النخلة ليتساقط الرطب عليها، ثم الأمر بالأكل من الرطب، والشرب من الماء، وكل هذه الأفعال كان لها جرس قوي، وإيحاء بليغ، فدلت في مواضع على حالة الضعف واليأس والشدة التي مرت بها مريم، ودلت في مواضع أخرى على القوة والحركة.

٣- المشهد الثالث:

مشهد المواجهة، وفيه تصوير لحال مريم مع قومها، ومواجهتهم بمعجزة الله، المعجزة الربانية التي أنطقت الطفل الرضيع.

يقول تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ

(١) – تفسير الشعراوي (٩٠٦٩/١٥).

(٢) – التحرير والتنوير (٩٤/١٦).

مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾[1]

يبين تعالى في هذا المقطع حال مريم مع قومها حين أتتهم حاملة ابنها، فلما رأوها قالوا لها: يا مريم لقد جئت أمراً عظيماً، يا أخت هارون، ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش، وما كانت أمك امرأة سوء تأتي البغاء، فكان جوابها أن أشارت إلى مولودها ليسألوه ويكلموه، فقالوا منكرين عليها: كيف نكلم من لا يزال في مهده طفلاً رضيعاً؟ فأجابهم عيسى –عليه السلام– وهو في مهده: إني عبد الله، قضى بإعطائي الكتاب، وجعلني نبياً، وجعلني عظيم الخير والنفع حيثما وجدت، وأوصاني بالمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة ما بقيت حياً، وجعلني باراً بوالدتي، ولم يجعلني متكبراً ولا شقياً، عاصياً لربي، والسلامة والأمان علي من الله يوم ولدت، ويوم أموت، ويوم أبعث حياً.[2]

الدراسة التحليلية لآيات المشهد الثالث:

يقول تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

لما اطمأنت نفس مريم حين رأت الآيات السابقة، وعلمت أن الله تعالى معها، وسيظهر براءتها وعذرها، ما كان منها إلا أن تواجه قومها، فأتت بطفلها تحمله، فاستنكر قومها ما جاءت به، وقالوا: لقد أتيتي بأمر عظيم منكر.

جاء الفعل (فأتت) مناسباً لحال مريم، فهو يصور حالها وهي تمشي ببطء، مشية الواثق بنصر الله، الواثق بإظهار براءته، ففاء التعقيب تدل على يقينها بربها، وإيمانها بوعده لها، بإظهار براءتها، "وهذه الحالة للدلالة

(١) – سورة مريم (٢٧–٣٣).

(٢) – ينظر: التفسير الميسر (٣٠٧).

على أنها أتت معلنة به غير ساترة؛ لأنها قد علمت أن الله سيبرئها مما يتهم به مثل من جاء في حالتها."[١]

والتقييد بقوله تعالى: (تحمله) يفيد اطمئنانها وزوال هلعها، بعد أن رأت الآيات المعجزات أمامها.[٢] والفري: هو البديع، وهو من فري الجلد، ومعناه: عجيباً خارجاً عن العادة من غير تعيير وذم، ويحتمل أن يكون مرادهم شيئاً عظيماً منكراً، فيكون ذلك منهم على وجه الذم[٣]، وعبر عنه بالشيء تحقيقاً للاستغراب."[٤]

وجاء حرف التحقيق (قد) مع لام القسم في قوله: (لقد جئت) للدلالة على أن قومها جزموا باتهامها، من دون سماعها، أو التحقق من حالها.

وقد ارتبطت جملة (قالوا يا مريم) بجملة (فأتت به قومها تحمله) فبين الجملتين ارتباط قوي، واتصال وثيق، فقومها بادروها بالكلام والتوبيخ حين رأوها تحمل ابنها، وجزموا باتهامها، فكأن كلامهم كان جواباً لسؤال تبادر إلى ذهن كل من رأى مريم في تلك اللحظات، وهو لماذا فعلتِ هذا الفعل الغريب؟ فبين الجملتين شبه كمال الاتصال.

والتعبير بلفظة (فرياً) له جرس ملفت، فالفاء حرف مهموس رخو، والراء حرف مجهور، متوسط بين الشدة والرخاوة، وهو من الحروف المتصفة بالتكرير، وانتهت اللفظة بمجيء حرف الياء مع ألف المد، كل صفات الحروف هذه جاءت بلفظة (فرياً) لتدل على شمولية هذه اللفظة، فالفري له معاني كثيرة، فهو العجيب، والغريب، والعظيم، والخارج عن

(١) – التحرير والتنوير (٩٤/١٦)

(٢) – ينظر: حاشية القونوي على تفسير البيضاوي (٢٢١/١٢) دار الكتب العليمة، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ.

(٣) – ينظر: مفاتيح الغيب (٥٢٩/٢١).

(٤) – ينظر: تفسير أبي السعود (٢٦٣/٥).

العادة، وكل هذه المعاني جاء التعبير عنها بلفظة واحدة ملفتة للأسماع وهي (فرياً).

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾

(يا أخت هارون) جملة إنشائية طلبية، جاءت بصيغة النداء، وهذا النداء كان من قوم مريم، وفيه تهييج لعاطفتها، وتحريك لرابط الأخوة عندها، وإثارتها بندائها باسم أخيها.

وهو استئناف لتجديد التعيير، وتأكيد التوبيخ، وبعده تقرير لكون ما أتت به أمراً منكراً، (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً) وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش.(١)

والتعبير بلفظة (بغياً) دون (زانية) فيه شمولية أكثر، وهي أن البغاء أعظم وأشمل من الزنا، فالزانية من ترتكب فاحشة الزنا فقط، أما البغي فتتضمن معاني أخرى، كالظلم والفساد، ووصف الزنا بالبغاء للدلالة على تجريمه، وأنه بغي وتجاوز لا يجب الاقتراب منه، يقول الراغب: " وبغت المرأة بغاء: إذا فجرت، وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها".(٢)

يقول تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١﴾

كانوا ينتظرون تبريرها وإجابتها عن تساؤلاتهم، فما كان منها إلا أن أشارت إلى طفلها، فقالوا لها منكرين لجوابها: (كيف نكلم من كان فى المهد صبياً) ولم نعهد فيما سلف صبياً يكلمه عاقل.(٣)

---

(١) – ينظر: تفسير أبي السعود (٢٦٣/٥).

(٢) – ينظر: المفردات في غريب القرآن (ب غ ي) (١٣٧/١) تحقيق: صفوان عدنان الداودي ، دار القلم – الدار الشامية، دمشق-بيروت، ط١/ ١٤١٢هـ.

(٣) – ينظر: تفسير أبي السعود (٢٦٣/٥).

الاستفهام في قوله: (كيف نكلم) استفهام إنكاري، حتى أنهم بالغوا في الإنكار فأتوا بالفعل (كان)، ثم يفاجئهم عيسى –عليه السلام– بالنطق، ويبين لهم أنه عبد لله، لا يعبد غيره، وقد أعطاه الله الكتاب، وجعله من أصفيائه وأنبيائه، وهذا القول فيه تبرئة لأمه، فمن كان عبداً لله، ونبياً من أنبيائه لا يمكن أن يكون ابناً لبغي.

وقد جاء ت الجملة (قال إني عبدالله) مؤكدة بـ (إنّ)، للدلالة على شرف العبودية لله، وأنه مقام رفيع، وقدم إيتاء الكتاب على النبوة، ليدلهم على الحجة الأكثر ظهوراً وبياناً أمامهم، وهي وجود كتاب من الله، وقدم لفظ البركة على الظرف (أين) ترغيباً لقومه لما فيه مصلحتهم، فبركته دائمة، لا تنقطع.

والتعميم في قوله تعالى: (أين ما كنت) تعميم للأمكنة، أي لا تقتصر البركة في بيت المقدس، بل أينما حل.[1]

ثم لاحظ الفاصلة القرآنية (صبياً) و (نبياً) و (حياً) كلها كلمات تنبض بالأمل والحياة، وتدعو إلى التفاؤل، فجرسها هادئ، وفيها اطمئنان وراحة للنفس، وقد ختمت بحرف الياء المشدد مع ألف المد.

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾

هنا يذكر عيسى –عليه السلام– فضل والدته عليه، وأنه مأمور ببرها، وطاعتها، وهذا نفي آخر للتهمة عنها، وحرف العطف الواو في (وبراً بوالدتي) يدل على أن الله أوصاه ببر والدته كما أوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حياً، وقدم الجبروت على الشقاء؛ لأنه سببه، فالجبروت يؤدي دائماً إلى الشقاء والخسران.

(١) – ينظر: التحرير والتنوير (٩٩/١٦).

ويفهم من قوله: (شقياً) أنه نفى المعصية عن نفسه، ولم يزكها، وكل ذلك تأدباً مع الله تعالى، فلم يكن شقياً بعصيان أمه وعقوقها، ولم يكن شقياً بالبعد عن الخير بعد مباركة الله له، وفيه دلالة على أن البار بوالديه لن يكون شقياً، فبركة البر تحوطه وتحرسه.

والسلام جاء معرفاً بـ(أل) الدالة على الجنس؛ مبالغة في تعلق السلام به، حتى كان جنس السلام بأجمعه عليه[1]، كما أن (أل) تفيد الاستغراق والشمول، فالمعنى: كل السلام لا بعضه علي.

والفاصلة في هذه القصة جاءت متناسقة، فقد ختمت أواخر هذه الآيات بياء مشددة، يليها ألف المد، وهذه الصيغة لها جرس ملفت، وتناغم عجيب، فهي تدل على التيسير والسهولة، وهي تناسب المعاني في قصة مريم، وحالتها النفسية التي تذبذبت بين الخوف والهلع، والأمان والاطمئنان، فالحروف المشددة تناسب الشدة والكربة التي وقعت فيها مريم، فناسب اللفظ المعنى، ثم لاحظ الكلمات (سوياً) (تقياً) (زكياً) (مقضياً) (منسياً) (سرياً) (جنياً) (حياً) كلها تنبض بالحياة، جرس هادئ فيه أمل، فيه اطمئنان، فيه راحة لنفس أصابها الخوف والهلع.

(١) – ينظر: المرجع السابق (١٦/١٠٠).

الخاتمة

يكشف هذا البحث عن دلالة الجرس الصوتي للفظة المفردة في القصة القرآنية، محاولة منه في الكشف عن شيء من إعجاز القرآن الكريم، وبيان سر من أسراره العظيمة.

ومن أبرز نتائج هذا البحث:

١- السياق القرآني يتميز بانتقاء اللفظة المناسبة الملائمة للغرض والمعنى المقصود، وعرضها بأسلوب معجز، غني بالجرس الجاذب للأسماع.

٢- مخارج الحروف في اللغة العربية بمثابة الموازين والمقادير، فمن خلالها يستطيع الناقد الحكم على اللفظة، فيميز الجيد من السيء، والقوي من الضعيف.

٣- الجرس الصوتي في القصة القرآنية له أثر عظيم في تجلية المعاني، ودلالتها على المراد، وتأثيرها في النفوس.

٤- تميزت قصة مريم بتعدد المشاهد، واختلاف الأحوال وتقلبها، وكان للجرس الصوتي دور بارز في الكشف عن هذه الأحوال، وبيان الأغراض.

٥- كان لحرف العطف الفاء حضور قوي في الربط بين الأحداث، حيث دل على سرعة الأحداث وتواليها.

٦- كثرة الأساليب الإنشائية خصوصاً الأمر، تبعاً لحاجة المعاني، ومتطلبات المقام.

٧- كل مشهد من مشاهد القصة يغلب عليه حروف معينة، له جرس معبر عنه، فالمشهد الأول غلبت عليه الحروف (الذال، والسين، والشين، والراء)، والمشهد الثاني غلبت عليه الحروف (الميم، والتاء، والصاد، والضاد، واللام)، والمشهد الثالث غلبت عليه الحروف (التاء، والميم، والجيم، والكاف) كما غلبت عليه تشديد الحروف، وهذا يناسب الشدة والكربة التي وقعت فيها مريم.

المصادر والمراجع

١- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)**، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي: بيروت (د.ط)(د.ت).

٢- **الأصوات اللغوية**، د. إبراهيم أنيس – مطبعة نهضة مصر (د.ط)(د.ت).

٣- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع: بيروت – لبنان (د.ط) ١٤١٥هـ.

٤- **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان: محمد بن يوسف، تحقيق: صدقي محمد جميل، (د.ط)، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ.

٥- **التحرير والتنوير**، ابن عاشور: محمد الطاهر (د.ط) ١٩٨٤م، الدار التونسية للنشر: تونس.

٦- **التفسير البسيط**، الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

٧- **تفسير الشعراوي**، الشعراوي: محمد متولي، (د.ط) (د.ت) مطابع أخبار اليوم.

٨- **التفسير الميسر**، تأليف: نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الثانية – ١٤٣٠هـ.

٩- **جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب**، د. ماهر مهدي هلال، دار الرشيد للنشر: بغداد (د.ط) ١٩٨٠م.

١٠- **حاشية القونوي على تفسير البيضاوي**، لعصام الدين الحنفي، ومعه حاشية ابن التمجيد، لمصلح الدين الرومي الحنفي، دار الكتب العليمة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ

١١- **الحركات في اللغة العربية: دراسة في التشكيل الصوتي**، د. زيد خليل القرالة، عالم الكتب الحديث: إربد، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.
١٢- **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة**، مكي بن أبي طالب القيسي، مكتبة قرطبة، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.
١٣- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، دار إحياء التراث العربي: بيروت (د.ط)(د.ت).
١٤- **سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح عثمان بن جني**، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم: دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.
١٥- **الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، لإسماعيل بن حماد الجوهري**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ.
١٦- **الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى**، د. عيد شبايك، دار حراء: القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
١٧- **فتح القدير**، للشوكاني، دار ابن كثير – دار الكلم الطيب : دمشق، بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
١٨- **الكتاب، لسيبويه**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض – الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.
١٩- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود – علي محمد معوض، مكتبة العبيكان: الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
٢٠- **لسان العرب، لجمال الدين محمد بن مكرم بن منظور**، دار صادر: بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
٢١- **مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، لمحمد بن عمر الرازي**، دار إحياء التراث العربي: بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.

٢٢- **المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني**، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم – الدار الشامية، دمشق-بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٢٣- **النشر في القراءات العشر، لشمس الدين أبو الخير ابن الجزري**، مراجعة: علي محمد الضباع – دار الكتب العلمية: لبنان (د.ط)(د.ت).

٢٤- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر البقاعي**، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة (د.ط)(د.ت).

References :

1- 'iirshad aleaql alsalim 'iilaa mazaya alkitaab alkarim (tafsir 'abi alsaeud), li'abi alsueud aleimadii muhamad bin muhamad bin mustafaa, dar 'iihya' alturath alearabi: bayrut (du.ta)(di.t).
2- al'aswat allughawiatu, du. 'iibrahim 'anis - matbaeat nahdat misr (du.ta)(di.t).
3- 'adwa' albayan fi 'iidah alquran bialqurani, muhamad al'amin bin muhamad almukhtar alshanqiti, dar alfikr liltibaeat w alnashr w altawzie: bayrut - lubnan (du.ta) 1415h.
4- albahr almuhit fi altafsiri, 'abu hayan: muhamad bin yusif, tahqiqu: sidqi muhamad jamil, (du.ta), birut: dar alfikri, 1420hi.
5- altahrir waltanwiru, abn eashur: muhamad altaahir (du.ta) 1984ma, aldaar altuwnusiat lilnashri: tunus.
6- altafsir albaseet, alwahedi: abo alhasan ali bin ahmed, altabeat al'uwlaa- 1430h- Deanship of Scientific Research - Imam Muhammad bin Saud University.
7- tafsir alshaerawi, alshaerawi: muhamad mutawali, (du.ti) (da.t) matabie 'akhbar alyawma.
8- altafsir almisari, talifu: nukhbat min 'asatidhat altafsiri, majamae almalik fahd litibaeat almushaf alsharifi, altabeat althaaniat - 1430h.
9- jaras al'alfaz wadalalatuha fi albahth albalaghii walnaqdii eind alearabi, da. mahir mahdi hilal, dar alrashid lilnushri: baghdad (du.ti) 1980m.
10- hashiat alqunawi ealaa tafsir albaydawi, lieisam aldiyn alhanafii, wamaeah hashit aibn altamjida, limaslah aldiyn alruwmii alhanafii, dar alkutub alealimati, bayrut, altabeat al'uwlaa 1422h
11- alharakat fi allughat alearabiati: dirasat fi altashkil alsawtii, du. zayd khalil alqaralat, ealim alkutub alhadithi: 'iiribid, altabeat al'uwlaa 1425h.
12- alrieayat litajwid alqira'at watahqiq lafz altilawati, makiy bin 'abi talib alqaysi, maktabat qurtibat, altabeat al'uwlaa 2005m.
13- ruh almaeani fi tafsir alquran aleazim walsabe almathani, lishihab aldiyn mahmud bin eabd allah

al'alusi, dar 'iihya' alturath alearabii: bayrut (du.ta)(di.t).
14- siru sinaeat al'iierabi, li'abi alfath euthman bin jini, tahqiqu: du. hasan hindawi, dar alqalami: dimashqa, altabeat althaaniat 1413h.
15- alsihah (taj allughat wasihah alearabiati), li'iismaeil bin hamaad aljawhari, tahqiqu: 'ahmad eabd alghafur eatara, dar aleilm lilmalayini: birut- lubnan, altabeat alraabieat 1407h.
16- alfasilat alquraniat bayn almabnaa walmaenaa, du. eid shbayki, dar hara': alqahirati, altabeat al'uwlaa 1413h.
17- fath alqadir, lilshuwkani, dar abn kathir - dar alkalm altayib : dimashqa, bayrut - altabeat al'uwlaa 1414h.
18- alkitabi, lisibwyhi, tahqiqu: eabd alsalam muhamad harun, maktabat alkhaniji bialqahirat wadar alrifaei bialriyad - altabeat althaalithat 1408h.
19- alkashaaf ean haqayiq ghawamid altanzil waeuyun al'aqawil fi wujuh altaawili, lilzamakhshari, tahqiqu: eadil 'ahmad eabd almawjud - eali muhamad mueawad, maktabat aleibikan: alrayad, altabeat al'uwlaa 1418h.
20- lisan alearabi, lijamal aldiyn muhamad bin makram bin manzurin, dar sadir: bayruta, altabeat althaalithati, 1414h.
21- mafatih alghayb (altafsir alkabir), limuhamad bin eumar alraazi, dar 'iihya' alturath alearabia: bayrut, altabeat althaalithat 1420h.
22- almufradat fi gharayb alqurani, lilraaghib al'asfahani, tahqiqu: safwan eadnan aldaawudii, dar alqalam - aldaar alshaamiatu, dimashqa-bayrut altabeat al'uwlaa 1412h.
23- alnashr fi alqira'at aleashra, lishams aldiyn 'abu alkhayr abn aljazari, murajaeatu: eali muhamad aldibae - dar alkutub aleilmiati: lubnan (du.ta)(di.t).
24- nuzam aldarar fi tanasub alayat walsuwr, li'iibrahim bin eumar albaqaeii, dar alkitaab al'iislamii bialqahira (du.ta)(di.t).